العبرانيون الاكثر تخلفا عندما تسللوا الى بلاد كنعان حوالي نهاية الالف الثاني ق. م. وبعد ذلك يتحدث عن قيام الممالك اليهودية وسقوطها وكذلك حكم الاغريق والرومان حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وهنا يلاحظ المؤلف نقطة هامة وهي انه بعد قيام الحكم العربي « لمدة تقارب الخمسمئة سنة ظلت القدس بعيدة تماما عن اي نوع من الكوارث السياسية او العسكرية ، كما لم تتعرض لاي تدمير او حريق او نهب كالذي تعرضت له في الفترات السابقة خاصة في ظل الحكم اليهودي . » ويضيف بأن فترة الهدوء هذه لم تنته الا في زمن الفتوحات الصليبية في العام ١٠٩٩ عندما احتفل الغزاة الجدد ، لمناسبة استيلائهم على القدس، بذبح قسم كبير من سكانها. وهذه الحقائق التي غالبا ما تكون موضع تحريف على يد المؤرخين اليهود والمسيحيين الغربيين ، تشكل النقطة المركزية لوجهة نظر المؤلف ، وهي انه اذا لم تعد فلسطين في بداية القرن العشرين الارض الاسطورية للبن والعسل ، فان مسؤولية ذلك لا تقع على عرب فلسطين ، بل على الغزاة الاجانب الذين تعاقبوا على حكم البلاد واساءوا استخدام مقدراتها او دمروها . اضف الى ذلك ، يقول المؤلف وبشكل مقنع ، انه في حين كانت معظم ثروات البلاد مشتتة ، فان الاسطورة الصهيونية التي تقول بأن الصهيونيين الاوائل وجدوا فلسطين بلادا قاحلة هي كذلك وجهة نظر خاوية . ومن الطريف ان افضل المراجع التي يستخدمها لتدعيم هذا الرأي هو كتاب السير موسس مونتيفيوري الذي قام في العام ١٨٣٩ بجولة في فلسطين بقصد الحصول على اراض للتنمية الزراعية على يد المستوطنين اليهود . ويقول السير موسس عن الجليل الشرقي : « يوجد كروم زيتون يزيد عمرها على خمسة آلاف سنة على ما اعتقد ، وكروم عنب ، ومراع وآبار ومياه وافرة وصحية ، وكذلك شجر التين والجوز واللوز والتوت ، الخ ، وحقول غنية بالقمح والشعير والعدس . » ويضيف السير موسس انه وجماعته « بين صفد وطبريه عبروا في منطقة جميلة يتخللها منحدر طويل يلتوي بين التلال المغطاة بأشجار التين والزيتون والرمان » ، كما انهم رأوا ان المنطقة المحيطة بالجاعونه « رائعة حقا وفي افضل مستوى زراعي . » وقد اثنى على مهارة المزارعين ، ولاحظ كثرة قطعانهم ودواجنهم وخلص الى القول : « انني لم ار اي بلد غنية وجميلة كهذه » . اعتقد ان هذا يكفي بالنسبة لخرافة الصحراء التي جعلها الصهيونيون تزهر .

ومن الجدير بالملاحظة ان نرى عددا من الاسرائيليين في الوقت الحاضر يعبرون بصراحة عن آراء مماثلة تناقض الاسطورة التي نجح الصهيونيون في غرسها في العالم الخارجي . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هناك عاموس الون الذي يقول في كتابه المشار اليه آنفا : « هناك شعور مزعج بالذنب ، ولو بشكل محدود ، بين بعض الاسرائيليين بأن افضل الاراضي التي يقيمون عليها كانت ملكا للعرب الذين ارغموا بطريقة او بأخرى على النزوح عنها . » وقد حدثت في المجال الثقافي عملية مماثلة لهذه نوعا ما . واعتقد ان كثيرا من الاسرائيليين يشاطرون خالد قشطيني ملاحظته بأن « المهاجرين اقتبسوا كثيرا من الفنون الشعبية العربية ، بما في ذلك الرقص والزخرفة ... لخلق ما يسمونه في هذه الايام الفن الاسرائيلي . » اما في مجال العمران فالامر مختلف، ولسوء الحظ ، اذ ان القدس الجديدة التي باشر الاسرائيليون في بنائها هي ، بكل بشاعتها ، من خلقهم .

وبالنسبة للسؤال الاخير الذي يطرحه الاستاذ القشطيني حول ما اذا كان من الممكن ان تتعرض فلسطين للدمار والخراب كالذي رافق الغزوة الاسرائيلية الاولى ، اعتقد ان الوقت لم يحن بعد للاجابة عليه . ولكن المرء ، في هذا المجال ، سرعان ما يتذكر قول آحاد هاعام ، المفكر اليهودي المشهور بأن « الخطأ الذي ينجح يبقى خطأ . »

مايكل ادامز